البيت مدرسة

بقلم الأستاذ سلامة موسى

كلنا يسلم بأن البيت للتربية والمدرسة للتعليم . الأول هو الذى يؤسس الأخلاق ويبنى الشخصية ويكسب الفلسفة التوجيهية . والثانية هى التى تعلم وتثقف وتفتح للصبى أبواب الدراسات وقد تهيئه للحرفة . ولكن المدرسة العصرية قد أصبحت تقوم إلى حد ما بمهام البيت وتحاول التربية فوق التعليم . وهى لذلك تنشئ الجمعيات بين التلاميذ وتطالبهم بواجبات يقصد منها إلى بناء الأخلاق . بل هناك مدارس قد أصبح المعلم فيها يترك مدرسته لكى يزور عائلة التلميذ ويبحث بيئته الاجتماعية فى البيت والشارع . كما أن هناك جمعيات تؤلف من الآباء والمعلمين معا لبحث شؤون التلاميذ .

ومن هذه الأمثلة نرى أن التفاعل بين المدرسة والبيت يزداد فى أثره ومداه بالتطور الحديث فى الخطط التعليمية . وهو بالطبع لم يكن قط معدوما . ولذلك يحق لنا أن نسأل : هل يمكن البيت أن يتحمل شيئا من تبعات التعليم التى هى من الواجبات الأولى للمدرسة كما تحملت المدرسة شيئا من تبعات التربية التى هى من الواجبات الأولى للبيت ؟

وللإجابة نقول : أجل يمكن البيت ذلك ، أى يمكن البيت أن يساعد الصبى على أن يترقى فى دروسه ويتوسع فيها ويحثه على الاهتمام بالدرس والتطلع والطموح الثقافى . وقدرة الصغار على الدرس كبيرة جدا أى أكبر مما نتوهم . فنحن مثلا نستعظم دراسة ثلاث أو أربع لغات أجنبية . والرجل الذى نصادفه ممتازا بهذه المعرفة نعده نادرة . ولكن كثيرا من الصبيان فى أوربا وخاصة فى سويسرا والأقطار المنخفضة يمتازون بتعدد اللغات التى يتعلمونها عفوا لكثرة اختلاطهم بأبناء هذه اللغات . والبيوت الثرية فى مصر تستخدم المربيات الأجنبيات فلا تمضى مدة طويلة حتى يكون الصبى قد حذق لغتين أجنبيتين بحض الحديث والقراءة البسيطة . وأبناء الجاليات الأجنبية فى مصر يتعلمون منذ الطفولة اللغة الفرنسية فى بيوتهم ، لأن الآباء يحدثونهم بهذه اللغة إلى جنب لغتهم الأصلية . ولما كان معظم البيوت التجارية الأجنبية فى مصر تؤدى حساباتها ومكاتباتها بهذه اللغة فإن أبناء هذه الجاليات يتفوقون على أبنائنا فى الحصول على العمل فى هذه البيوت . وليست غايتنا الحض على تعلم لغة معينة ، ولكنا ضربنا

هذا المثل لكى نبين قدرة الصبيان على التعلم . وأنه يمكن الآباء أن يرقوا أبناءهم فى تحصيل المعارف وبعث الطموح الثقافى ومساعدتهم على التقدم فى جميع المواد الدراسية تقريبا .

وهنا عقبة تعترض الأبوين المصريين . فإن أعظم ما يفسح الطريق للصبى لكى يدرس ويتوسع هو اللغة ، أى لغته الأصلية التى يرضع لبانها من أمه . ولكنا فى مصر لا نتكلم باللغة التى نكتب بها . فالأم الفرنسية مثلا تحدث طفلها منذ سنته الأولى بل منذ الأسبوع الأول لميلاده باللغة التى سيقرؤها بعد ذلك فى الكتب . وكذلك تفعل الأم الانجليزية أو الألمانية . ولذلك يتحمل الصبى المصرى عبئا ويبذل مجهودا لا يتحمله ولا يبذله أبناء الأمم الأخرى . زد على هذا الصعوبة العظمى فى كتابة اللغة العربية . فإن حروف اللغة الانجليزية ٢٨ حرفا . وهى كذلك فى الكتابة . أما حروفنا فتبلغ نحو مئتى حرف من حيث الكتابة والشكل . والكلمة المؤلفة من ثلاثة أحرف يمكن أن ينطق بها على أكثر من عشر صيغ . وهذا زيادة على اختلاف الحرف فى رسمه من حيث وقوعه فى أول الكلمة أو وسطها أو آخرها . والصبى الذى نرغبه فى التوسع يجب عليه قبل كل شىء أن يألف اللغة ويقرأها بلا عناء ويعرف ألفاظها الغريبة . وهى فى أغلب الأحيان غريبة لأنه لم يسمعها من أبويه وليس هذا شأن الصبى الانجليزى أو الفرنسى .

على أن الصعوبة يمكن تخفيفها إلى حد ما بأن يعمد الآباء فى البيت إلى استعمال الألفاظ الكتابية المألوفة مع الطفل . ولا يظن الأب أن هذا الاستعمال يرهق ابنه أو بنته فان الكلمة الغريبة كثيرا ما تحدث الصبى على الالتفات والاستماع كأنها اكتشاف جديد . وسرعان ما يقتنيها الصبى ويفاخر باستعمالها . وإذا ثابر الأبوان على التفصح واستعمال الألفاظ التى تدل على معنى ممتاز أو مغزى عصرى فإن الصبى ينشأ وهو نازع إلى التأنق فى التعبير ويرغب فى القراءة التى لا ترهقه عندئذ بوفرة ما فيها من ألفاظ يجهلها . وأحسن وأفضل ما يكسبه طفل من أبويه هو حب القراءة والرغبة فى التوسع الذهنى باقتناء الكتب والمجلات .

وقد ذكرنا قيمة اللغة واستعمال الألفاظ التى يجب أن يعرفها الصبى . وهذا يجرنا إلى ضرورة الحديث المثمر مع الأطفال . فإن الطفل بطبيعته كثير السؤال يستفهم عن كل شىء يراه بعينه أو يمر بخاطره ، فاذا وجد صدودا من أبويه عن الإجابة كف عن السؤال . وهذا هو الخسار العظيم . أما إذا وجد تلبية بالاجابة المشروحة والعطف المشجع فانه يسأل ويستثير . فقد يقعد أحدنا فى شرفة مكشوفة فيرى الصبى معنا من نار يخترق السماء فيصيح : هذا نجم . ولكن الوالد الذى يريد أن يجعل بيته شريكا للمدرسة ومعينا لها على تثقيف ابنه ينتهز الفرصة فيصحح اللفظة ويقول . لا : بل هذا شهاب . وهذه لفظة جديدة تفتح ذهن الطفل أو الصبى . ويمكن الأب عندئذ أن يبعث طموحا ثقافيا جديدا فيفصل بين النجم والشهاب والكوكب

وعلاقة الأرض بنجمها الشمس وغير ذلك من الفلك. وهكذا الشأن فى أسئلة أخرى . بل مثل هذه الأسئلة يجب أن يكثر هذه الأيام لأن الحرب تثير مخيلة الصبى . والأب الذكى يمكنه أن يعلم ابنه كثيرا من المعارف الجغرافية والتاريخية بل الكيماوية والطبيعية إذا هو استمع إلى أسئلة الصبى وأجاب عليها فى صبر وعطف . فالطائرة التى تقطع ٦٠٠ كيلو متر فى الساعة تستطيع أن تدور حول العالم فى يومين . والغواصة التى تغوص تحت الماء النهار تجدد هواءها فى ظلام الليل . وقتل الآباء الذين يجندون فى الجيش ، والمغزى من مطامع الدول واختلاف الخطط السياسية ونحو ذلك مما يشوق الطفل أن يعرفه و يغذى فكره . ومخيلة الطفل تنشط لمثل هذا الحديث . وهو عند ما يرى الصورة فى الجريدة أو المجلة يسارع إلى الاستفسار عن مغزاها إذا لم يكن قد تعلم القراءة كما يجد معنى وقصدا يلمسهما فى أحس شهواته الذهنية فى تعلم القراءة .

لقد ذكرنا قيمة اللغة وضرورة التفصح فيها . وكذلك قيمة الحديث المنير المثقف الذى يخصب ذهن الطفل أو الصبى ويبعثه على الاستزادة والتوسع . وهنا يجب أن نذكر الضرورة الحتمية فى شراء الكتب والمجلات التى يحتاج إليها الصبى حتى يعتاد القراءة ويجد فيها السلوى التى تمنعه من الوقوع فى سلويات ضارة . ومما يؤسف كثيرا أن صبياننا محرومون من المجلات الصبيانية التى تشرح الموضوع على قدر عقولهم وتختار من الموضوعات ما يبعث نشاطهم . مع أننا عند ما نلق نظرة عابرة على ما يعرض من مجلات أوربية فى المكتبات نجد الكثير من هذه المجلات التى تقص قصص الاقتحام — وليس قصص الغرام — التى يشغف بها الصبيان. وهذا إلى موضوعات مصورة جغرافية وتاريخية تنشر فيها صور الحيوان والنبات والانسان فى مختلف الأقاليم . بل لقد بلغ الاهتمام بتثقيف الصبيان أن صارت لهم الآن موسوعات ومعاجم قام بتاليفها أعظم المؤلفين الأوربيين. وقد توخوا فيها جميعها سهولة البحث والشرح والتأنق فى التصوير، كما توخوا متانة الورق والتجليد حتى لا تؤثر يد الصبى الغشيمة فى المجلدات وقت التناول والتداول . والطفل بطبيعة ذهنه الغض لا يدرك المجردات . فهو يعرف الرجل الشجاع ولكنه لا يدرك ماهية الشجاعة . ومن هنا كراهة الكثير من صبياننا للمؤلفات التى وضعت لهم، لأنها لم تؤلف على قياس أذهانهم ولم تنشد المحسوسات قبل المعقولات. والصبى لا يدرك النصيحة والإرشاد ولكنه يفهم المثل والقدوة . وتحسن وزارة المعارف عندنا إذا هى كلفت بعض الأساتذة والمعلمين تأليف كتب مصورة بل معاجم وموسوعات مصورة على النسق الذى نجده فى بريطانيا والولايات المتحدة وخاصة على أيدى مؤلفين مثل أرثر مى أو ثورندبك

ويجب ألا يعارض الآباء فى أن تكون لأبنائهم هواية ما يشغفون بها ويخصونها بوقتهم و بنقودهم . فإن هذه الهواية تعلم كما تربى ، أى تزيد المعارف وتحث على الاطلاع كما تبنى

الأخلاق . فإن فراغ الصبي الذى لا يتعلق بهواية حسنة ينقل عليه . والطبيعة تكره الخواء . وهو لابد مسارع إلى ملء هذا الفراغ بالسيئ من الأعمال إذا لم يجد الحسن منها . فعلى الآباء أن يساعدوا الصبي فى اتخاذ هواية حسنة وأن ينفقوا عليها كما ينفقون على تعليمه ، لأنها هى أيضا من التعليم وإن كان تعليما ذاتيا . والصبي وهو يربى الأرانب أو يزرع الأقحوان أو يصنع الكرسى البدائى يمارس عملا يفتح ذهنه و يربى كفاياته . وليست دراسة الكتب هى كل شيء . وإنما هى بعض الاطلاع والثقافة .

والبيت الذى يمتاز بأبوين ذكيين يمكنه أن يساعد المدرسة على أن تجعل من الصبي تلميذا مقبلا على دروسه ، راغبا فى التوسع ، لا يشعر أنه مسخر على حفظها مكره على تفهمها . بل يشعر أن البيت والمدرسة كليهما عون له على الرقى والنمو .

سلامه موسى

اشتد الوجد بأعرابى فقال : —

خليلى كفا اللوم فى فيض عبرة ... أبى الوجد إلا أن تفيض وتسجما

ولا تعجبا من لجعة البين إننى ... رأيت الهوى طعين : شهدا وعلقما